المشرق

فقيد الطباعة

نبذةٌ موجزة للاب لويس شيخو اليسوعي

ابت الدنيا على كلّ حيّ آخر الأيام ألّا ذهابا
بينما الانسان حيٌّ قويٌّ اذ دعاهُ يومهُ فاجابا

في مساء يوم السبت الواقع في ٧ من الشهر المنصرم لبّى دعوة ربّه مزوّدًا بكل اسرار الكنيسة الطيّبُ الأثر المرحوم مارديًا الياس مدير مطبعتنا الكاثوليكيّة. فما بلغ منعاهُ مسامع معارفهِ حتى فاضت لفقدهِ العبرات وعلت الزفرات ولهجت بمحامدهِ الألسنة ودَّ الجميع لو فدوهُ بالنفس والنفيس. والحق يقال انّ الفقيد كان اسر مدّة حياتهِ باستقامتهِ وتراهة سيرتهِ وفضلهِ العميم قلوب كل الذين أتيح لهم ان يدنوا من شخصهِ الكريم. وقد اعربوا جميعهم عن مزيد اسفهم وشاطروا الاحزان في هذا المصاب واردعوا في بطن الجرائد الحليّة عبارات الثناء على من عدُّوهُ مثالًا للمصافاة والاخاء.

هذا وما كنّا نحن لنطرئ في تجلّتنا فضائل هذا الرجل البارّ لعلمنا ان غاية ما يتمنى الراهب ان ينساهُ البشر بعد موتهِ كما اعتزل عنهم مدّة حياتهِ فانقطع لخدمة ربّهِ بيد انّ الاخ المذكور كان ابًا لعائلةٍ ساسها نحو ثلاثين سنة وعُني بتهذيبها وصلاحها نزيد المتين من العمّة الطبّاعين الذي ربّاهم وعلّمهم وكان لهم قدوةً في ممارسة الاعمال الصالحة فلم يشاؤوا ان يموت ذكرهُ ورغبوا الينا ان نلخّص لهم ترجمة حياتهِ فلم نرَ بدًّا من الاجابة الى ملتمسهم. وحدانا الى ذلك ايضًا انّ لهذا الاخ فضلًا خصوصيًّا على هذه المجلة فانهُ لم يدخر وسعًا في انشائها والقيام بلوازمها وحسن طبعها لتكون منذ اوّل نشأتها عملًا

حقيقاً بنظر الادباء وسنداً للدين والعلم. فرأينا ان نؤدي للفقيد شكرنا بتدوين هذه الاسطر لتخليد ذكره في صفحات المشرق

١

وُلد الاخ الياس في ١٥ آب من سنة ١٨٤٠ يوم عيد انتقال السيدة الى السماء. كانَ هذه البتول الطاهرة التي اجزلت عليه هباتها في حياته ارادت ان تختصهُ بشفاعتها منذ ولادته. وكان والدهُ من بيت السانس يخدم الرهبان الكرمليين في دير سيدة الكرمل بامانة وغيرة. فنشأ ولدهُ في حجرهِ متخرّجاً بآدابه. وكانت امهُ متعبدة لسيدة الكرمل وكثيرًا ما تأتي كنيستها لتتبرّك بزيارة معبدها ومعها ولدها الصغير فتأثر الطفل منذ نعومة اظفاره من هذا المنظر وبقي ذكرهُ منطبعاً في قلبه

ولمّا ترعرع الصبي خدم دير الكرمل كابيه وكان حاذقاً في العمل كثير النشاط يقلّد الكبار في اشغالهم. وكان في اوّل امره يشتغل في البناء فلم يلبث ان يُحسن هذه الصناعة. ثمّ زاول الحدادة فأتقنها وقد ادّى لدير الكرمل من هذا القبيل خدماً عديدة حتى انّ الرهبان لم يرضوا بغيره قيّماً مع صغر سنّه وكان مع ذلك ليّن الطباع امينًا في الخدمة قنوعًا بالقليل

وفي اثناء ذلك كانت عبادتهُ الى العذراء الطاهرة تزيد مع الايّام وكان يرى الجموع تتقاطر الى معبدها وتُقام الحفلات البهيجة في اعيادها لاسيما يوم موسم سيدة الكرمل فكان يلتجئ الى البتول في ضيقاته وينظر اليها نظر الولد لامه. وبينما كان يوماً يشتغل في الكنيسة وحدهُ اذ مرَّ امام مذبحها فرفع بعينيه الى صورتها العجائبيّة التي هناك فرأى كأن السيدة تستدعيه وتُشير اليه بان يقترب من ابنها الذي على ذراعيها. فظنَّ انّ بصرهُ يخدعهُ لكنّ العذراء كرّرت هذه الدعوة مرارًا حتى تحقق الرؤيا (١ فجثا امام الصورة يطلب من الله بكلّ حرارة قلبه ان يعرّفهُ ارادتهُ فسمع صوتًا باطنًا يدعوهُ الى خدمته تعالى ونبذ المخلوقات. فاخبر رئيس الدير الاب شيرلو الكرمليّ بما جرى لهُ فآنسهُ الاب وارشدهُ وحثّهُ على عبادة العذراء والانعكاف على الصلاة

وكان الرئيس الموماً اليه قد استدعى مصورًا مالطيًّا لينقش جدران كنيسة الكرمل بالدهون والألوان فجعل الياس الشاب تحت ادارته ليساعده في العمل. فلمّا كاد الشغل

(١ اخبر الفقيد احد رهباننا بهذه الرؤيا يومين قبل وفاته في دير تنائيل

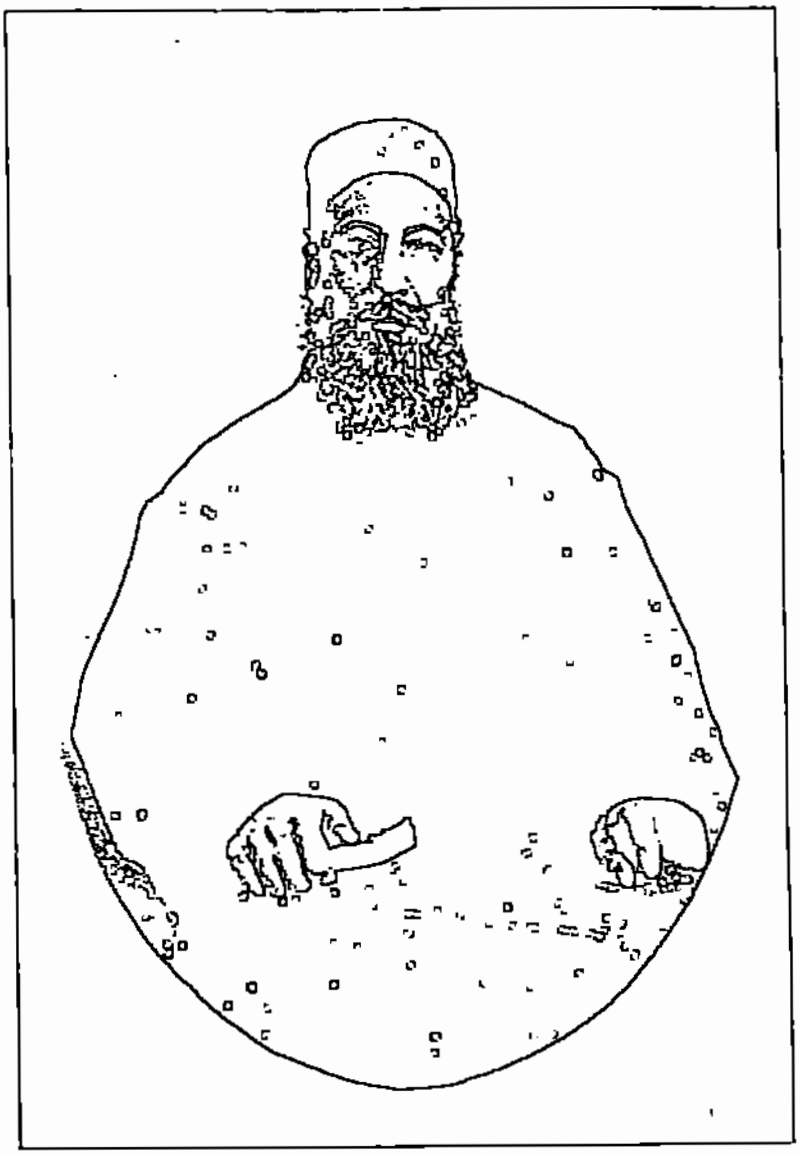

فقيد الطباعة

الاخ ماريّا الياس اليسوعي

ولد في ١٥ آب ١٨٦٠ توفي في ٧ ايلول ١٩٠١

يبلغ نصفهُ اضطرَّ المصوّر الى ان يبرح الدير . فبقي الرئيس مرتابًا في امره لا يعرف الى من يفوّض تتمة العمل . فأحسَّ ابن السائس بحيرة الرئيس وطيَّب قلبهُ ووعدهُ انهُ ينجز هو بنفسهِ هذا المشروع ومن ساعتهِ تحفَّز للعمل واتمَّ النقش على غاية ما يرام من الإحكام

وفي خلال هذا الشغل انعم الله على المرحوم بنعمة جديدة ثبَّتتهُ في دعوتهِ وحملتهُ على تعجيل نيَّاتهِ الصالحة . فانهُ اذ كان يومًا فوق الصقالة التي تحت القبَّة وهو يشتغل بنقشها اذ دخل الكنيسة بعض الزوَّار ومن جملتهم الوجيه لويس كتناكر فكأنَّ المصوّر حانت منهُ التفاتة الى الداخلين فخانتهُ رجلهُ وسقط من علُ . فظنَّ الجميع انهُ هالك لا محالة يتهشَّم عند وصولهِ الى الحضيض فما اعظم ما كان اندهاشهم اذ رأوهُ منتصبًا بينهم وهو سالم ليس فيهِ اذًى . واخبر انهُ شعر وهو في الهواء بيد تمسكهُ ورأى شيخًا جليلًا أنزلهُ الى قرار الارض بهدوء وسكينة . فلم يشكّ الحضور انَّ مخلّصهُ هو صاحب المقام القديس الياس العظيم . وذلك ما حمل الشاب ان يتَّخذ لهُ اسم الياس شكرًا لهذا النبي الجليل عن خلاصهِ كما انهُ أضاف اليهِ اسم مريم لما نالهُ من النعم بشفاعة العذراء الطاهرة (١

ثمَّ اخذ الياس منذ ذاك الحين يطلب الوسائل لتحقيق رغائبهِ وترك العالم الغرور . فلمَّا كانت السنة ١٨٥٦ قدم جبل الكرمل الدكتور بيني (Bini) احد اطبَّاء جيش نابوليون الاول سابقًا ونزل ضيفًا كريمًا في دير الكرمل وكان ابن السائس يخدمهُ بامر الرئيس فسرَّ بهِ الدكتور وتفرَّس فيهِ ملامح النجابة والذكاء . وسألهُ هل يريد ان يأتي في خدمتهِ الى بيروت ليهتمَّ بتعليمهِ ويسهّل لهُ اتباع دعوتهِ . فأجابهُ انَّ ذلك غاية ما يتمنى وأقنع اخاهُ يوسف ان يصحبهُ

فوصل الدكتور بيني الى بيروت وسلَّم الولدين الى بعض الافاضل لتثقيفهما بالعلوم وتمهيد الطريق دون دعوتهما الالهيَّة . الَّا ان العوائق العديدة تصدَّت لهما وحالت دون اتمام مرغوبهما واضطرَّا الى ان ينتقلا الى حريصا ثم الى زحلة فغزير فبيروت وأظهرا في كلّ هذه الامكنة من الثبات في سبيل الله ما اذهل الجميع ودفع من عرفهما الى ان يصرخ : « ان اصبع الله هاهنا »

وفي آخر الامر فُكَّت اغلالهما وأُطلق سبيلهما وسارا الى فرنسة حيث انتظما في

(١ سمعنا هذا الخبر من فم اخيهِ عبد الله

سلك الرهبانيّة اليسوعيّة فاحسّ اليـاس مذ ذلك اليوم انهُ دخل مينا الخلاص وشرع يرتاض بالرياضات الرهبانيّة ويبني ذلك الصرح العالي الذي اشار اليـهِ المسيح وهو برج الكمال الذي بلغ ذروتهُ بعد زمن قليل. وكان كلُّ رفقتهِ يتعجّبون من نشاطهِ في خدمة الله وعبادتهِ الصادقة وتجرُّدهِ من كل الامور الفانية حتى اتخذوهُ في مهد حياتهِ الروحيّة كمثال حي لكل الفضائل الرهبانيّة التي لا يُرى كمالُها في التالب الّا في الشيوخ

ولو اردنا ان نسترسل في ذكر فضائل الاخ اليـاس لاتّسع بنا المجال فاننا رأيناه وعشنا بجواره مدّة سنين عديدة فلم نجـد في تصرُّفهِ وسلوكهِ غير صورة رجل الله لا يكترث لشيء من الامور الزائلة ولا يطلب في اعمالهِ غير مرضاة ربّهِ والطاعة لرؤسائهِ

وكان يخدم الله بسذاجة ويستنكف عن الجاه البشري والفخفخـة الباطلة ولذلك كان يسكت عن امورهِ الشخصيّة ويحبُّ الاختلاء عن الناس والتردُّد مع الله في الصلاة. وكان بلغ من الايمـان درجة سامية تراهُ مستعدًّا لان يهرق حتى آخر نقطة من دمهِ في سبيل هذه الموهبة الالهيّـة. وكان في كلامهِ مع القريب يسعى في حملهِ على التقوى والاعمال الصالحة واذا رآهُ متردّدًا في ايمانهِ كان يفرغ الجهود في درء الشكّ عنهُ وحلّ مشكلاتهِ الدينيّة

امّا نظافة عيشهِ وتقشفاتهُ فكانت عجيبـة. الّا انهُ كان يستر اماناتهِ عن نظر الناس. ولو لم يكن لهُ من الفضل سوى عيشتهِ بين فعلة المطبعة مدّة ثلاثين سنة كأنهُ الواحد منهم بل اصغرهم لكان ذلك كافيًا لبيـان عظم تقانيهِ وتواضعهِ. وكم من مرّة رأيناهُ بعد ان صرف صلب نهارهِ في الاشغال الشاقّة يلحُّ على الرؤساء لكي يسخروهُ في الليل بضروب الخدم ويكلّفوهُ الكلف الشتّى بدلًا من اخوتهِ الرهبان وكان الرؤساء يقصدونهُ بكل ثقة لعلمهم انهُ مستعدٌّ ابدًا لبذل ذاتهِ وتضحية نفسهِ لخير الجمهور

٢

على ان الاخ الياس لم يقضِ قطّ بين الرهبان عيشةً بارّة بل نفع جمعيّتهُ ووطنهُ باعمال ذات شأن قلَّ من يأتي بمثلهـا. فانهُ لمّا عاد من فرنسة بعد اتمامهِ الامتحانات الرهبانيّة وتأصُّلهِ في الفضيلة أُرسل اوّلًا الى ديرنا في معلّقة زحلة وكان هناك مبتمٌّ فيـهِ نحو مئة ولد فتولى ادارة الحدادة وعلّم هذه الصناعة كثيرين من اليتامى ثمَّ أُرسل الى مدرستنا في غزير فبقي فيها خمس سنوات يخدم هذا الدير بغيرة لا تعرف الملل

الا ان الله كان اختاره ليقوم بعمل آخر اهمّ من ذلك واعمّ نفعاً. فلمّا كانت سنة ١٨٦٩ رأى رئيس رسالتنا العامّ الاب امبروسيوس مونو ان يوسّع نطاق مطبعتنا في بيروت ويجهزها بالآلات الطبعيّة الجديدة ويجعلها شبيهة بالمطابع الاوربيّة فلم يجد رجلاً اقدر على هذا المشروع الجليل من الاخ الياس. فباشر هذه الصناعة بما كان مطبوعاً عليه من الاقدام والنشاط واخذ ينظر في كل آلات هذا الفنّ حتى ادرك تركيبها. ثمّ حاول ان يجعل أمهات الحروف بواسطة الكهربائيّة فاصاب بعض النجاح واحبّ لو أتيح له ان يدخل مدّةً في معامل اوربّا الكبرى. فارسلهُ رئيسهُ سنة ١٨٧٣ الى باريس ليزاول هناك اشغال مهنتهِ في مطبعة الدولة. فذهب الاخ الى عاصمة فرنسة وطاب الى مدير المطبعة العمومية ان يدخلهُ في عداد عملتهِ. فأجابت المديرَ هيئتهُ الشرقيّة وطلاقة وجههِ قبلهُ وامر ناظري المطبعة ان يساعدوهُ في باوغ وطرهِ فشرع ينكبّ على اعمال الطباعة كأنّهُ احد العملة وهو مع ذلك لابس ثوب الرهبان المرسلين فما مرّ عليهِ سبعة اشهر حتى ادرك كلّ أسرار هذا الفن وعرف طرائق طبع النقوش الناتئة الملوّنة حتى انّهُ تمكّن قبل وداعهِ لمدير المطبعة ان يقدّم لهُ تقريظاً جميلاً مزيّناً بالألوان كان صفّهُ وهندسهُ وطبعهُ بيدهِ. ثم رحل الى لندرة ودخل ايضاً دار طباعتها الكبرى وتعلم هناك فنّ التنجيس وكان للانكليز طريقة يحافظون عليها كسرّ مصون فتمكن الاخ الياس من تعلّمها وعاد بعد سنة الى بيروت مهيّأ ليغني مدينتنا بكل الاختراعات الاوربيّة

وقد بقي فقيدنا ثلاثين سنة بنيف يدير مطبعتنا الكاثوليكية بهمّة متواصلة ونجاح عجيب. وقد بيّنّا في مقالتنا عن هذه المطبعة (المشرق ٣: ٧٠٩) كيف دخلت في ايّامهِ في طور جديد وما استحضر لها الرؤساء من الادوات النفيسة. وكان كلّ ذلك بهمّة الاخ الياس حتى انّ من دخل اليوم مطبعتنا لا يجد فيها اداةً واحدة لم يكن لهُ في تحصيلها او تركيبها او اصلاحها القسم الاكبر وليس كتاب من التآليف التي نُشرت فيها الّا ولهُ في اتقانهِ وحسن طباعتهِ النصيب الاوفر. فبفضلهِ صارت هذه المطبعة نسيج وحدها في كل الديار الشرقيّة فتراها اليوم بعدهُ كانها اليتيمة تبكي علّة وجودها ومنعش حياتها

وكان الاخ الياس مع عنايتهِ بالمطبعة اكثر اهتماماً بعملتها لا يعيش الّا لصالحهم وكان يتفقّدهم وهم احداث فيربّيهم تربية الامّ لبنيها فكنت تراهُ مكرّماً من الجميع

لا يقع عليه نظرهم حتى يبشّ وجههم وينشط خاطرهم. وكان الاخ يهتمّ بجميعهم دون استثناء. ويسعى في تعليمهم ويُسر بنجاحهم ويرقّيهم الى الاشغال المهنّة ويثيبهم حسب نشاطهم وكان يلحظهم لئلاّ يُصاب منهم احدٌ بأذى الآلات. واذا جُرح بعضهم كان يشاطره في ألمه ولا يزال يهتمّ بامره الى ان ينال تمام الصحّة. وكذلك كان يفتكر بالمرضى فيعودهم ويسعى لهم باطبّاء يمرّضونهم ويتحفهم بما امكنهُ من المساعدات وكان يفرض على نيّاتهم صلوات خصوصيّة لشفائهم

الّا انّ التفات الاخ الياس لخير عيلته الروحيّ كان اعظم منهُ لخيرهم الزمني. فكنت تراهُ يستنفد الوسع لتثقيف طباعهم فانهُ كان يسهر عليهم ويراقب آدابهم ويطرد من بينهم من انتهك حرمتها. وكان يحضّهم على المحبّة الاخويّة والتودّد ورقّة الطباع

وكان يبذل قصارى جهدهِ في ان يطبع في قلوبهم روح الدين فلا يدعهم يباشرون الشغل الّا بعد الصلاة وكذا في وسط النهار وفي آخره كان يرقي بافكارهم الى الله خالقهم. وكان يدرج اسماءهم في الاخويّات التقويّة ويرشدهم الى المثابرة على الاسرار والتعبّد لقلب يسوع الاقدس وللبتول الطاهرة وخطيبها الجليل. وكان يجمعهم مرارًا ليسمعوا القراءات الروحيّة وشرح التعليم المسيحيّ

ومن جملة الوسائط التي كان يلتجئ اليها انهُ كان يقضي معهم فرصة الظهر بعد الغداء. فيقصّ عليهم قصصًا كان ينتخبها من تاريخ الكنيسة واعمال الشهداء واخبار اولياء الله او مشاهير رجال الدين. فكان العملة يحدقون بهِ ساكتين كأنّ على رؤوسهم الطير يسمعون لهُ ويصغون الى كلامهِ بملء الرغبة والشوق

ومنها ايضًا انهُ كان يصنّف لهم روايات ادبيّة ودينيّة يعلّمها البعض منهم في اوقات الفراغ فيشخصونها في أوان الرفع او بعض الاعياد الكبيرة. وكان يدعو الى هذه الروايات اهل البلد فيتعجب الكلّ من حذاقة المشخصين وتمام اهبة التشخيص

ومنها ايضًا انهُ كان يأخذهم في كل سنة يوم عيد العنصرة الى مزار شهير ليتمّموا فيهِ الفرائض الدينيّة ثمّ يروّحوا البال بالفرجة والتنزّه. وكان الاخ المدير في ذلك اليوم يخدم الجميع ولا ينسى غير نفسهِ

الّا انّ حبّهُ لاحداث الفسحة كان اعظم منهُ لغيرهم فانهُ كان يجمعهم كل يوم احد ويروّح خاطرهم ببعض الالعاب الادبيّة ويخرج معهم الى التنزّه فيصرفون بصحبتهِ

ساعات من الهناء لم يجدوها في بيوتهم. وبهمّته وامثاله الطيّبة قد زرع في قلوب كثيرين بذر الدعوة الاكليركيّة او العيشة الرهبانيّة نعرف منهم اساقفة وكهنة ورهبانًا فاضلين لا يزالون يذكرونهُ بالخير وينسبون اليهِ حتى اليوم دعوتهم الصالحة

على انَّ الاخ الياس لم يقصر محبَّتهُ لابناء مطبعتنا بل كان اذا سنحت لهُ الفرصة يؤدّي الخدم لكل من يلتجئ اليهِ. ومن جملة هؤلاء ارباب المطابع فانّنا لا نظنّ انَّهُ منذ ثلاثين سنة أُنشئت في بيروت مطبعة الّا وساعد الاخ اصحابها على انشائها وتنظيم ادواتها وقد عرفوا لهُ فضلهُ وكانوا بعد وفاتهِ لسانًا واحدًا على شكر صنيعهِ

مرَّ على فقيدنا في هذه الحالة من التفاني وبذل الذات احقابٌ عديدة حتّى انهكت قواهُ اشغالهُ المفرطة غير انهُ بقي مداومًا على العمل لا يطلب راحة حتى اضطرَّهُ الرؤساء الى ان يذهب الى ديرنا في تمنايل منذ شهرين لعلَّهُ يجد في تغيير الهواء إصلاحًا لصحَّتهِ. فاجاب الى امر الرؤساء وقلبهُ عند عملة مطبعتهِ يتمنَّى ان يعود اليهم قريبًا لكنَّ الله رأى عبدهُ اهلًا بالجزاء فقوي عليهِ المرض وكابد بصبر جميل مرَّ الاوجاع مدَّة ثلاثة اسابيع اعطى في اثنائها لاخوتهِ مثال الراهب الكامل الى ان توفاهُ الله ليلة عيد ميلاد البتول فاستحقَّ ان يلد للسماء يوم وُلدت العذراء لخلاص البشر وباركت في احد اعيادها وفاتهُ كما باركت يوم ولادتهِ في عيد انتقالها وباركت يوم دخولهِ في الرهبانيَّة يوم حُبل بها بلا دنس

وهنا كان ينبغي لنا ان نصف ما حاق من الحزن والالم باصحابهِ يوم بلغهم خبر وفاته. امَّا عمَّتُهُ فحدِّث عن اساهم ولا حرج فبكوهُ ولا بكاء الابن لاعزّ الوالدين واقاموا لراحة نفسهِ الصلوات الحارَّة وخصَّصوا لذلك قدّاسًا تقرَّبوا فيهِ الى الاسرار. وحضر هذه الحفلة كثيرون من اهل البلد نخصّ منهم بالذكر بعض ارباب المطابع الذين اعربوا عن اكرامهم للمرحوم وقاسموا اهل المطبعة اسفهم. وقد أبنهُ واحدٌ من ابناء مطبعتنا باسم رفقتهِ برثاء نقتطف منهُ هذه الابيات نجعلها ختامًا لهذه النبذة الموجزة

لمَّا ثوى الياسا تحت الثرى ... بتنا نصعّد بالاسى زفراتنا
خطبٌ ألمَّ بنا وقد أصلى الحشى ... نارًا فاهطل كالدما عبراتنا
يا راحلًا لم يُبقِ غير الحزن في ... شبّانتا وشيوخنا وبناتنا
لو تفتدي يا من تركت لنا الجوى ... افديت يا طود التقى بحياتنا